هل ينسى أحد مؤامرة الهدنة الأولى عام ١٩٤٨؟

ووقف الثورة عام ١٩٣٦؟!

أخشى أن يكون ما يجري اليوم في الكواليس السياسية شبيها بما جرى أثناء التحضير لمؤامرة الهدنة الأولى في فلسطين عام ١٩٤٨. ومعلوم أنها الهدنة التي طلبها الكيان الإسرائيلي الوليد المهزوز الموشك على التسليم، وهرعت الولايات المتحدة وبريطانيا للضغط على العرب (نعم، منذ ذلك الحين!) لوضعها موضع التنفيذ. فاستغلها الصهاينة في داخل فلسطين وفي خارجها أفضل استغلال لقلب الموازين، ونام فيها العرب نوم أهل الكهف. وكانت مقدمة ونذيرا بالهزيمة الأرذل في حياة الأمة (حتى ذلك الحين).

وتفصيل ذلك أن جيوش الدول العربية السبع آنذاك كانت قد دخلت فلسطين منذ أسبوعين، واستلمت من الفلسطينيين كامل الرقعة سليمة تقريبا، باستثناء يافا ومساحة بسيطة من الجليل الشمالي، ووقفت على الحدود التي حددها قرار التقسيم للعرب.

وذهبت أمريكا تجري إلى مجلس الأمن إثر استنجاد بن غوريون بها، وقالت إن الوضع في فلسطين يهدد السلم، وإن على المجلس أن يتدخل في النزاع ويمنع القتال بالقوة أو يطبق العقوبات على العرب إذا لم يمتثلوا له. وفي المداولات التالية أكملت بريطانيا هي الأخرى دورها الإجرامي المعهود، حين هددت الدول العربية علنا، بالإضافة إلى ضغوطات دبلوماسية أخرى، بأنها لن توفي إلى كل من مصر والعراق والأردن التزاماتها بتوريد الأسلحة والمعدات التي تعهدت بها وفقا للمعاهدات السابقة.

انقلاب الميزان

وهكذا، باختصار، فرضت على العرب الهدنة الأولى التي استرد فيها الإسرائيليون أنفاسهم المتقطعة وحظوا من الجانبين البريطاني والأمريكي بالإمدادات المطلوبة، بما فيها الطيران، فضلا عن الصفقة الشهيرة التي أرسلت إليهم من تشيكوسلوفاكيا. وبانتهاء الهدنة والدخول في الدورة الثانية من القتال بدأ الوضع العسكري يتراجع بسرعة على جبهات الجيوش العربية، وجرت الانسحابات التي صدرت بها الأوامر من العواصم دون أن تمليها ظروف القتال الموضوعية.

وما نريد قوله الآن هو أن إسرائيل متعبة نفسيا (ولا نقول منهارة)، وأن وزارتها مرتبكة (ولا نقول منفرطة)، وأن رئيس وزرائها شارون فقد جزءا لا يستهان به من رصيده (ولا نقول أفلس). وفي المقابل يتمتع الفلسطينيون بروح معنوية عالية وتشيع فيهم روح الاستشهاد كما لم يحدث في أي شعب من الشعوب قديما وحديثا، وتعيش فصائلهم وتنظيماتهم حالة من الانسجام والوحدة الوطنية ورفقة الخندق والرباط، وينعم رئيسهم بشعبية عارمة فاقت شعبيته أيام كان في الخارج قبل ممارسات السلطة.

وبناء على هذا، ودون أن نلقي خطبا ونلقي كلاما على عواهنه، يجب أن نتجنب أمرين: فنمتنع عن التسرع والانسياق مع سخونة الرأس والانعزال والمطالبة بمواصلة شن حرب حتى النصر، ونحذر في الوقت نفسه من التسرع والانسياق مع المخاوف أو الوعود الأمريكية والدخول في دوامة مفاوضات لا تنتهي، فنبيع آخرتنا بدنيانا دون أن نحظى بأي منهما، وذلك

هو الخسران المبين. أقصد به إفراغ القرب على أمل السحاب. وأقصد محاربة انتفاضتنا التي صببنا فيها هذا الدم العزيز، دم شعبنا الباسل. وأقصد الفشل في الحوار مع أهل العنفوان ورفاق الرباط، أو الانزلاق نحو ما يشتهيه المتآمرون وما يعضون الأنامل غيظا لأنهم لم يظفروا به، ألا وهو تصدير أزمة الإسرائيليين إلى مناطقنا.

إنني من الذين يشعرون أنه لا بديل حاليا عن السياسة والعمل السياسي الذي نعرف جميعا أن له مقتضياته وله ثمنه. ولكن علينا أن نحذر تكرار التجربة التي سبق أن مررنا بها في غابر أيام القضية الفلسطينية، حين أوقفنا ثورة عام ١٩٣٦ (اعتمادا على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية) على حد تعبير الملوك والرؤساء العرب آنذاك.

أسياده العبيد

والموقف يدعو إلى إجراء حساب دقيق للوضع وللخطوات السياسية والتنفيذية التي تطلبها منا الولايات المتحدة بواسطة رجال السي آي إيه، والشروط التي يتشدق شارون بملء فمه بها: وقف الانتفاضة النبيلة (وهي في عرفه وعرف أسياده العبيد إرهاب وعنف وجريمة)، وذهاب عرفات الزعيم (وهو في مفهومه ومفهوم أسياده العبيد إرهابي من الجيل القديم ذي المفاهيم المتحجرة) ومجيء شخوص أصغر سنا وأكثر براغماتية، وحبس نصف الشبان الفلسطينيين على يد النصف الآخر من إخوتهم، وهم إخوتهم بالمعنى الذي يكاد يكون حرفيا للكلمة.

كلا.. كلا.. لا يجوز أن نسلم أوراقنا كأننا نستسلم بدون قيد ولا شرط ونقبل ترك مصيرنا رهنا بأيدي بوش وشارون، فموقفنا ليس موقف المهزوم بحال من الأحوال. وعلينا أن ندرك الموقف المعزز الكريم الذي أحلتنا فيه دماء الاستشهاديين والوزن المنتزع الذي أكسبتنا إياه تلك الدماء ولو كنا في غيابات السجن. وأصلا كان زعماء حزب العمل الذين هم رجال الدولة الأوائل في الكيان الصهيوني قد عرفوا أن الفلسطينيين قادرون على المقاومة ولو تكسرت عظام أيديهم، ولهذا رأى زعماء العمل أنه لا مناص من التعامل سياسيا مع الفلسطينيين. ويبدو أن شارون، على الرغم من محافظته على باطل المكابرين الذين ينتمي إليهم بطبعه وتكوينه الشخصي، لم يكن من الغفلة بحيث لا يفهم أن أفكاره حول القضاء على الفلسطينيين بفضل طلعته الشخصية وخططه الجهنمية كانت أفكارا صنعها الوهم وزخرفتها المغامرة التي هي عنصر آخر في طبعه وتكوينه الشخصي. فاغتيال قائمة من الشبان اليافعين على أساس أنهم هم قادة المقاومة ومخططوها لم ينجم عنه إلا تصاعد أعمال المقاومة، على يد احتياطي ضخم من الشبان الذين يقبلون على طريق الشهداء السابقين كأنما هم يغارون من طريقة موتهم بدلا من أن يخشوا ذلك المصير. ومن هنا لا نستبعد أن يكون شارون قد بدأ يدخل التعديل على أساليبه الفجة ولغته السوقية (لغة ليتني قتلتك من زمان) ويتتلمذ شيئا ما على بيريس الذي يرى أن خنجر القتل ينبغي أن يكون من النعومة والرهافة والمضاء بحيث ينفذ في قلب الضحية دونما يكاد يحس به. ولهذا عاد شارون يستنجد بالولايات المتحدة من أجل الضغط لوقف انتفاضة الأقصى، على مذهب بيريس الذي سارع إلى طلب التدخل الأمريكي في بداية الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧، وهو الآن يدعو إلى التهدئة، ويتجاوز عن نصوص شروطه الأولى التي تتحدث عن الهدوء بنسبة ١٠٠%.

اسألوا الإسرائيليين

أما الرئيس الأمريكي، وتابعاه تشيني ورامسفيلد، فلم يبلغا بعد ما بلغه شارون من الفهم والاستيعاب. ولا بد من مزيد من الخسائر في أرواح البشر وفي المعدات لكي يفهموا أنهم ليسوا إلا نوعا من الدونكيشوتات الخالية من طهر دونكيشوت الأصلي ومن نبالته. (وهذا تعبير مقتبس من المرحوم عمر أبو ريشة القائل: أمتي كم صنم مجدته لم يكن يحمل طهر الصنم!)

وقادة إسرائيل ذهبوا شوطا بعيدا جدا في اتخاذ إجراءات الأمن والوقاية منذ اغتصبوا فلسطين عام ١٩٤٨ حتى اليوم، فأقاموا الأسلاك وأجهزة الإنذار، وبنوا دشم المراقبة، وزرعوا كميات هائلة من الألغام، ونسجوا شبكات لا نهاية لها من العملاء والجواسيس، واقتنوا بعلم الأمريكيين واطلاعهم ومن فضلة خيرهم الأسلحة التي تستخدمها القوات الخاصة، ونصبوا المناظير الليلية وأجهزة الاستشعار الإلكترونية، وسيروا دوريات استطلاع في البر والبحر والجو، فلم يكن ذلك كله حائلا دون انبثاق ظاهرات المقاومة، واحدة تلو الأخرى في أجيال كأجيال الكمبيوتر وأجيال الأسلحة (إذا شئتم). هل يسأل الأمريكيون ربيبتهم إسرائيل عن ذلك؟ وهل يتعلمون منها أن العنف لا يولد إلا العنف؟

لا يزداد الأمريكيون إلا إصرارا وترديدا للكلام الذي يعد في حد ذاته بصقة في وجه العصر. فعندما يقول رامسفيلد إن الحرب ضد الإرهاب سوف تستمر عشرات السنين وإن بعض فصولها ستكون علنية وبعضها الآخر سرية قد تنكشف أستارها ذات حين وبعضها ربما يبقى سرا إلى الأبد (وهذا نص كلامه)، فإن كل كلام تتشدق به أمريكا عن الديمقراطية والحرية والشفافية يغدو من سقط القول، كما أن إقدام الولايات المتحدة على طلب تعديل نصوص اتفاقيات جنيف بخصوص الأسرى، وأسلوب معاملتها أسرى القاعدة وطالبان في غوانتانامو لن ينجم عنه إلا أمور من قبيل قتل الصحفي الأمريكي بيرل في الباكستان. ولن تؤتى قوة في الأرض القدرة المطلقة على جعل نفسها في حصانة مطلقة من الأذى، إذا هي أسست بنيانها على ظلم الآخرين.

يحاول الأمريكيون اليوم أن يقيموا هدنة بين إسرائيل وبين السلطة الفلسطينية بناء على طلب أمثال بيريس الذي يحصل سرا عند اللزوم على ضوء أخضر من شارون. وتأتي هذه المحاولة بالتوازي مع خطاب شارون يوم الجمعة الماضي. وهو خطاب لم يخرج عن مألوف شارون. فالسلام بالنسبة إليه سلام إسرائيلي. أعني أنه يجب تبعا لرأيه أن يكون (أولا) سلاما لإسرائيل، ولو تكبد الفلسطينيون جراءه حربا في مناطقهم، على يد إسرائيل، بل الأفضل أن يتكبدوا ذلك على يد بعضهم ضد بعض (وثانيا) سلاما بشروط إسرائيلية، في كل ما يختص بالأماكن المقدسة وبالأرض وبالمياه وبالاقتصاد. (وثالثا) سلاما لغايات إسرائيلية تتعلق بالمستقبل وبالمكانة التي تريدها إسرائيل لنفسها مستقبلا في المنطقة.

تصدير الأزمة

فاشتراط شارون وجماعته الأمريكيين أن التقدم نحو طاولة المفاوضات يتوقف على ضرب فرقاء العمل الوطني الفلسطيني، وأكثر من ذلك هدم البنية التحتية لما يدعونه الإرهاب والمقصود به المؤسسات الخيرية أو العلمية التي أقامها بعض فرقاء الصف الفلسطيني، يساوي تماما تحقيق السلم للجانب الإسرائيلي مقابل الحرب في داخل المجتمع بل والأسرة الفلسطينية. والأمريكيون يعرفون حتما أن الفلسطينيين يستطيعون أن يضبط بعضهم بعضا إذا كان في يدهم شيء يمكن أن يحمل معنى استرجاع الحق ولو نسبيا. أما أن يحلم شارون بإيقاع

الحرب الأهلية والفتنة، وأن يراوغ ويماطل في مقتضيات التسوية وأن تعينه الولايات المتحدة في الأمرين وفي ما هو أكثر من الأمرين، فذلك ما لا يمكن أن يمر.

ومن الناحية الثانية لا يمكن القبول أبدا، لا على الصعيد الفلسطيني ولا العربي والإسلامي بتقويض أساسات المسجد الأقصى أو تدنيس حرمته. ولا يمكن القبول بمبدأ مكافأة العدوان والاحتلال الإسرائيلي القائم منذ ١٩٦٧، بإعطائه الأرض التي أراد شارون أن يجعل من إقامة المستعمرات فوقها أمرا واقعا وإدخالا لها في الحوزة الإسرائيلية، كما لا يمكن القبول بأن يستمر الإسرائيليون في نهب كل قطرة من المياه الطبيعية بالبلاد وحرمان الفلسطينيين منها أو مخاطبتهم بالقول: اذهبوا فأقيموا محطات تحلية لمياه البحر.

ومن الناحية الثالثة لا يمكن القبول أبدا بأن تغدو إسرائيل قائدة المنطقة وآكلة خيراتها باسم الحلف الوطيد بينها وبين أمريكا.

وأخيرا فإن مبدأ المناطق العازلة التي يقول بها شارون، والتي والس معه فيها المجلس الوزاري المصغر، ليس إلا نوعا آخر من أنواع الاستيطان الإضافي. وعندما يتخيل المرء، على سبيل المثال، أن المنطقة العازلة في إقليم من نوع قطاع غزة سوف تجرد القطاع من جزء من عرضه (المتراوح في معظم المناطق بين ٦,٥ كم ٧,٥ كم فإن المرء يحس بأن القيود والأغلال الحديدية عضت يديه وقدميه. فالإسرائيليون يصرون دائما على اقتطاع جزء من الأرض الفلسطينية في كل فرصة سانحة. وليس في ذلك عجب. لأن حكايتنا مع هؤلاء الإسرائيليين عجيبة من يومها وليست كمثلها حكاية. فلقد انتزعوا منا وطننا وقالوا إنه وطنهم، وقد زرعوا مستعمراتهم بين ظهرانينا وقالوا إننا نضايقهم. وقد ضربونا بالطيران والدبابات والصواريخ والبوارج وقالوا إننا نرهبهم، وقد أطلقوا على أنفسهم لقب الحكومة صاحبة السيادة وأطلقوا علينا لقب الخارجين على النظام، وقد ذهبوا إلى أقاربنا وبني قومنا فحرضوهم علينا وقالوا لهم إنهم الإسرائيليين أحباؤهم، وإننا نحن الفلسطينيين ننطوي على الخطر الجسيم لهم ولكياناتهم. وها هو شارون يخطب عن السلام وعن التهدئة وعن التخفيف عن السكان المدنيين ثم يقتل جيشه على الفور رجلا فلسطينيا في الشمال ويجرح ثمانية عشر رجلا في الجنوب، ويطلق الرصاص على امرأة ذاهبة للولادة. وهذا كله على الرغم من أنه ناشد عساكره بضبط النفس!

<u>رحلة الرئيس الأمريكي</u>

شئنا أم أبينا، وسلمنا أم كرهنا، فالولايات المتحدة محكومة في علاقاتها مع الشرق الأوسط والأقصى بميول اللوبي الصهيوني التي صارت إملاءات مع الزمن ومع اشتداد هيمنة هذا اللوبي على أجيال صناع القرار في مؤسسات الحكم الأمريكي. وهذا لا يعني أن جورج بوش اختار الدول الثلاث التي شملتها جولته في شرق آسيا أو أنه حدد جدول موضوعات المباحثات مع كل بلد لخدمة مصالح صهيونية صرفة، فمن البديهي أن زيارته للصين واليابان تناولت قضية فتح السوق في كل من البلدين لمزيد من البضائع الواردة من أمريكا وتطرقت في اليابان خاصة إلى تنسيق نظامها المالي وسياسات بنكها المركزي بما يعزز الاستيراد من أمريكا ومعالجة عجز الميزان التجاري الأمريكي في التبادل مع اليابان (وهو من وجهة نظر أمريكا القضية الأهم في العلاقات اليابانية الأمريكية)، ولا شك أيضا أن المحادثات مع الصين راعت بالإضافة إلى قضية الأسواق والأسعار إظهار الاهتمام بما ينتظره الصينيون دائما من الحصول على شيء من التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة مقابل إدخال الأمريكيين إلى السوق الصينية ذات المليار ونصف المليار مستهلك. وهذه المراعاة سلاح أمريكي طالما استخدمه الإسرائيليون

وانتفعوا به لتأسيس علاقاتهم وتطويرها مع الصين. غير أن جولة بوش عنيت عناية خاصة دون أدنى شك بقطع الطريق على العرب والمسلمين الذين اتجهوا شرقا لتوطيد علاقات مع الصين قد ترقى يوما إلى أن تصبح علاقات بديلة عن الغرب. وعنيت دون أدنى شك أيضا بمراودة الصين في شأن الضغط على كوريا الشمالية بغية منعها من بيع أسلحة للعالم العربي والإسلامي، لا سيما بيع الصواريخ، وذلك كله تحت عنوان الحرب ضد الإرهاب والتحالف الدولي ضد الإرهاب. والخلاصة أن الولايات المتحدة التي تشهر ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين في الشرق الأوسط إمكانياتها العسكرية والفيتو السياسي الذي تملكه، تشهر في ظهرهم في الشرق الأقصى إمكانياتها الاقتصادية الواسعة.

وقد يحسب بعض الناس أن هذه الرؤية شديدة التشاؤم وبالغة التطرف في الاستقراء، وقد يقولون إن السياسة الأمريكية أكبر وأشمل من أن تبنى على الاعتبارات الإسرائيلية. ولكن السنوات الأخيرة دلت على نحو مضطرد إن قياد السياسة الأمريكية الشرق أوسطية صار في يد النفر الصهيوني المبثوث في مراكز القرار، يسير بها مثلما يسحب صبي صغير جملا ضخما من رسنه. وما ذلك الرسن الذي نتحدث عنه في رقاب الساسة الأمريكيين إلا شدة شهوتهم للسلطة وضعفهم أمام المال وذعرهم من الحقيقة، مع سطحية تفكيرهم وضحالة ثقافتهم. أما بالنسبة إلى سياسة أمريكا في الشرق الأقصى، فالمسألة لم تصل بعد إلى مثل تلك الدرجة من الوضوح، فقد تشكلت ظاهريا لتساير اعتبارات استراتيجية تخص الولايات المتحدة بوصفها دولة كبرى ذات مصالح متشعبة في الشرق والغرب. ولكن هنري كيسنجر الذي افتتح ملف العلاقات الأمريكية الصينية، كان يتنفس صهيونيته شهيقا وزفيرا في كل ما يفكر أو يفعل، وهو الذي فتح لإسرائيل باب العلاقات مع الصين بعد فتحها مع أمريكا بقليل. وثابرت مادلين أولبرايت وزيرة خارجية العهد الديمقراطي على متابعة سياسة ومقاصد هنري كيسنجر وزير خارجية العهد الجمهوري (وسبحان الله بالمناسبة كيف عقمت الأمة الأمريكية عن ولادة وزراء خارجية أمريكيين في العقود الأخيرة غير هذين الصهيونيين، وسبحان الله كيف برزت عبقرية كل منهما في حزب مختلف في زمن متتابع وكيف كانا مع ذلك على قلب حاخام واحد)! وكانت أولبرايت حريصة على استخدام الدهاء لا التهديد ضد كوريا الشمالية لإقناعها بعدم بيع تكنولوجيا صواريخ ولا مفاعلات نووية إلى إيران والمشرق العربي. ولذلك غضبت غضبا شديدا لأن بوش قرن بين كوريا الشمالية وبين العراق وإيران، وبذلك (جمع) بينها وبينهما في حين أن الحصافة الصهيونية كانت تقوم على (التفريق). ومن المتوقع بالتالي أن تؤتي رؤية أولبرايت ثمارها، وأن يجد بوش من يصحح له ولوزير خارجيته مفاهيمهم وخططهم في الشرق الأقصى، وتجري محاولات مغايرة للتقرب من كوريا الشمالية والاعتذار إليها بداعي أن البقر تشابه عليهم وأن عروض أولبرايت لتقديم الطعام لأطفال كوريا الجائعين ما زالت قائمة، شريطة تسليم المفاعلات النووية الكورية إلى الولايات المتحدة والامتناع عن بيع أي صاروخ باليستي للعرب والمسلمين.

هل سنسمع في القريب العاجل تصريحات أمريكية تستثني كوريا الشمالية من محور الشر؟ أو تدعو الدول العربية الخليجية لتقديم مساعدات غذائية لكوريا الشمالية، داخل شوالات مكتوب عليها عبارة (هدية من شعب الولايات المتحدة)!؟